السلطة والقرابة

الدكتور عبد الودود ولد الشيخ

قسم الفلسفة.

تقديم للنظريات الانقسامية:

كتب جرج بلانديه " إن نظام القرابة يقصي نظريا نظام السياسة بالنسبة للعديد من المؤلفين" (1) ثم يضيف قائلا، مستشهدا بمورغان "إن أحدهما يتحكم في حالة المجموعة societas، بينما يتحكم الآخر في وضعية المدينة civitas، مثلما أن أحدهما - حسب موضة الإصطلاح الأنتروبولوجي - يحيل إلى بنيات التبادل والآخر يحيل إلى بنيات التبعية".

غالبا ما أثار انتباه دارسي مجتمع القبائل البيضانية ظاهرة تعقد وغموض العلاقات بين القرابة والسلطة والمقاومة العنيدة التي واجهت بها تلك القبائل انبثاق سلطة سياسية مركزية.

لقد دأبنا في أطروحة مخصصة للموضوع (2) على عزو النزاعات الداخلية والإنشقاقات والإنفصالات التي تنوء بخطرها الدائم على تفكك السلطة السياسية القبلية والأميرية، إلى الإنقسامية ، وآثار الإنقسامية. وعلى خلاف الآراء التي يلخصها استشهاد بلانديه ، أبرزنا في نفس العمل إمكانية استخدام سياسي للقرابة، عند ماذكرنا تشكل قبائل [اصطناعية] لاتكتسب وحدتها إلامن حيث دورها داخل البنيات السياسية لبعض الإمارات . وسننطلق هنا في البداية من تحديد طبيعة الآثار المتناقضة للقرابة على السلطة الأميرية كما تتجلى في ماتين الملاحظتين ، على أن نذكر فيما بعد الصيغ الأساسية لمايبدو أنه تحديد متبادل للعبة السياسية باللعبة الانقسامية، والفوض القبلية بالنظام الأميري أو الأنظمة الأميرية.

1) نظرية الإنقسامية وآثار الإنقسامية: دور كايم، أفانس بريتشارد، غلنر.

يبدو أن أميل دور كايم هو أول من استخدم مقولة الإنقسامية في أطروحته سنة 1893 "حول تنظيم العمل الإجتماعي" من أجل تحديد نمط خاص من المجتمعات هي" المجتمعات الإنقسامية".

إن الحجة المركزية فى الكتاب معروفة ومفادها أن التقدم المرتبط بتقسيم العمل يجعل البشرية تمر من شكل التضامن السلبي الذى تولده الحاجة إلى قمع الجريمة (التضامن الميكانيكي أو التضامن بالمحاكاة) إلى تعاون إيجابي يظهر مع نمو العمل الإجتماعي (التضامن العضوي). ففى الحالة الأولى نحن أمام مجتمعات قليلة التمايز تنطبع بسيادة استبداد" الوعي الجماعي" (3). وفى الحالة الاخرى نجد تشكلات اجتماعية أكثر "تطورا" اقتصاديا و"أخلاقيا" حيث يعرف الوعي الفردى تفتقا أكثر بروزا ويتخذ دور كايم القانون وتطوره خيطا موجها لبحوثه المخصصة لإقامة هذا التقابل ("فالتضامن الميكانيكى" يناسبه "القانون القمعي" بينما يلائم القانون التعاوني "التضامن العضوى"). وسيؤول التحليل إلى ضبط تتابع " المراحل " التى تشير، فى مستوى الإنسانية برمتها، إلى المرور التدريجي من رجحان " التضامن الميكانيكى" إلى سيادة " التضامن العضوى". فنقطة الإنطلاق المثلى لهذا المسلك الذى يقود من الشكل الأول إلى الثانى - بمعنى " مجتمع ينتج انسجامه من محض التشابه" (4).مكونة من مجموعة خالية من كل تنظيم أي من ركام لاشكل له، أو بعبارة دوركايم من " جبلة اجتماعية" Protoplasme يقترح تسميتها بالفصيلة horde. وبعد الفصيلة تأتى العشائر clans التى يشكل ترابطها قاعدة المجتمعات الإنقسامية و يفسر ذلك بقوله:

"إننا نعطى اسم العشيرة للفصيلة التى لم تعد مستقلة، بل اصبحت عنصر تجمع أكثر اتساعا ، كما نسمى مجتمعات انقسامية ذات قاعدة عشائرية الشعوب التى تشكلت من ارتباط العشائر.إننا نسمى تلك المجتمعات انقسامية للإشارة إلى أنها تكونت من تكرر جزئيات متشابهة فيما بينها، مماثلة لحلقات المحلق annele ونسمى هذا الركام الابتدائى فصيلة لأن هذه الكلمة تعبر جيدا عن الطبيعة المزدوجة ، التى هي فى آن واحد أسرية وسياسية"(5).

إن نموذج هذه المجتمعات توفره لدور كايم قبائل الابروجين الأسترالية وكذلك ايضا القبائل الهندية فى أمريكا اللاتينية، بقدرما استطاعت أن تتمثلها الأدبيات الإتنوغرافية فى تلك الفترة. فالصورة التى يقدمها دوركايم حولها هي صورة مجموعة تطبعها جوهريا المساواة، حيث لايتمتع شيوخ القبائل sachems ولاالقادة ذاتهم "بأي سمو"(6).

أما وحدة أعضاء العشيرة فتقوم على القرابة العصبية، ويقع التعبير عنها خصوصا فى المسؤولية الجماعية الدفاعية، أي واجب المشاركة فى الثأر لأفراد العشيرة. وفى الحقيقة تنحصر القرابة التى تشد لحمة العشيرة فى أغلب الحالات فى معيار خارجي يكون فى وحدة الإسم. إن هشاشة هذه الحالة المدنية تجعل فى الواقع حدود العشيرة سهلة الإختراق مما يفسح المجال أمام العديد من "الغرباء" . وهكذا تصبح العشيرة أكثر من مجرد وحدة عائلية بالمعنى المحدود للعبارة، بل نجد أنها تشكل من تجمع واسع يمكن أن يشمل عدة آلاف من الأشخاص. ولذلك يرى دوركايم، إنه من الاكثر دقة "أن نصف هذا التنظيم بأنه تنظيم سياسى - عائلى" (7) ويجد دوركايم فى القبائل العبرية نموذجا أكثر جلاء لهذه الأسر المحددة لنمط

التنظيم الإنقسامي باعتبار" أن جد كل عشيرة من العشائر التي تشكل القبيلة يفترض فيه أن يكون من صلب مؤسسي القبيلة، كما ينظر إليه هو ذاته كأحد أبناء أب العرق"(8).

فانسجام القبيلة العيرية وتضامن أفرادها، مشتق كليا من نسق التماثلات والتجانس البنيوى الكامل اللذين يربطان فيما بينها" الأقسام" المكونة للقبيلة.
لامحالة أن بعض الخصوصيات تظل قائمة، وتوفر لكل عشيرة مظهرا خارجيا متميزا وشخصية لها بعض التفرد، إلا أن كل نمو لاختلافية الأقسام يحمل بذرة هدم تضامنها، بينما ينشأ تماسكها الأكبر دائما عن التشابه الأكثر اكتمالا. وتنتظم الصيغ المختلفة من التنظيم الإنقسامي حول مختلف التركيبات الممكنة بين الخصائص الفردية وعلامات التشابه المميزة للأقسام التي تكونها.

يقول دوركايم:

"لكي يصبح التنظيم الأنقسامي ممكنا، لابد فى آن واحد أن تتشابه الأقسام، وإلايضيع بعضها فى الآخر وتنمحى.

إن هاتين الضرورتين المتقابلتين يتم إرضاؤهما حسب نسب مختلفة، إلا أن النمط الاجتماعي يظل كماهو" (9) فجدلية الاختلاف والتماهي التي تبدو هنا مبدأ التضامن الميكانيكى فى المجتمعات الإنقسامية تبرز بوضوح متزايد الطابع الإفتراضي المحض للتشابه الأصلي ، حيث اراد دوركايم فى التحديد المذكور آنفا، أن يرى العلامة الأساسية للعناصر المكونة لمايسميه" جبلة إجتماعية".

وهكذا حين يخرج من " ميدان ماقبل التاريخ والتخمينات"(10) الذى ترجع إليه كما تقول فكرته حول الفصيلة لايكاد يجد مجتمعا يستجيب تماما للنموذج التسلسلى للأفراد والمجموعات التي تتكون من جزئيات مشابهة لحلقات السلسلة.

وعلى كل حال فإن دوركايم لايقدم هذه الانماط الاجتماعية كأمثلة على المجتمعات الإنقسامية والانتظام الداخلى للعشائر الذي يميزها. فإذا كان نمط تفصل العشائر داخل مجتمع إنقسامي - مثل حالة بعض القبائل الهندية فى أمريكا الشمالية - يمكن أن يكون راجعا إلى تجمع فى شكل " سلسلة خطية"(11)، فإنه يبرز فى مرحلة أكثر تقدما إقترانا أكثر تعقيدا. يقول دور كايم:

" أحيانا تكون كل واحدة منها "أي العشائر" مندمجة فى مجموعة أكثر اتساعا، متكونة من إجتماع العديد من العشائر، ولها بذلك حياتها الخاصة واسمها المتميز، ويمكن أن تكون كل واحدة من هذه المجموعات بدورها مندمجة مع مجموعات أخرى داخل زكام أكثر اتساعا، ومن هذه السلسلة من

الإندمـاجات المتلاحقة تحصـل وحدة المجتمع الكلي وذلك هـو طـابع التنظيمي الأكثر سمواً"(12).

إن مثال مجموعات " القبـائل" kabyles المقدم هنا قريب في عدة مناحي من المجتمع البيضاني . فلدى القبائل:

"تشكل العشيرة الوحدة السياسية، المثبتة في شكل قرية (الجماعة أو تاذارت Thaddaret)، وتشكل عدة جماعات قبيلة(عـرش) arch ; وتشكل عدة قبائل اتحادا تاقليت، وهي أسمى مجتمع سياسي تعرفه القبائل"(13).

وكـذلك يرى دوركايم أن القبائل التوراتية الإسـرائيلية الاثني عشر توفر إجلاء ممتازا لنمط التنظيم الانقسامي القائم على "التضامن الميكانيكي".

وهكذا في كل الأحوال نجد أن انسجام المجتمع وتضامنه المتولدين عن التشابه بين أقسامه ، تدعمهما" الخصائص الفيسيولوجية" (14) الناشئة عن التماثل والتجاور والتعايش

ومـن بين هـذه الخصائص الفيسيولوجيـة تكمن الأرضية الصلبة " للوعي الجمـاعي" ، والهيمنـة الثقيلة والشـاملة "للمعتقدات والممارسات المشتركـة" (15) التي يقـوم الإجماع على تتبعهـا واحترامهـا وخصوصا الدين. وهكذا يقلب دوركايم الموضوع الذي أرسـاه فيستل دكولانجس coulanges fustelde عند ما رأى أن الـدين هو قاعدة الطبيعة العائلية للتنظيم البدائي في المجتمعات الإنقسامية. فدوركايم يقول على عكس ذلك إن سيطرة الدين الكاملة وتحكمه الأساسي في عقول البدائيين كامنان في نمط حياة وارتباط "الشعوب السفلى" وبساطة ورتابة الوحدات المكونة لمجموعاتهما " وذلك أن كل هذه الكتل الإجتماعية كانت متشكلة من عناصر متجانسة، بمعنى ، أن النمط الإجتماعي كان كبير النمـو فيها، والانماط الفردية كـانت متخلفة، ومن ثم صار من اللازم أن تكـون كل الحياة النفسيـة للمجتمع ذات طابع ديني" (16).

"فالمشاعية " التي كثيرا ما نلاحظها في هذه الشعوب ـ وباعتبار أن الثروة ليست أبدا " في النهاية سوى امتلاك الإنسـان للاشيـاء" (17) ـ تفسـر بكونها صادرة عـن نفس الأصول وتستجيـب لنفس الضرورات.

بل من الممكن أن تنشأ وتنمو في هذه المجتمعات بداية انقسـام العمل ـ وعنـدئذ يمكن أن نلاحظ بروز ممارسة سياسية مركزية لصـالح "مستبد متوحش" (18) ; متملك لرعيته مثل مالك العبيد، ولكـن سلطته اللامحـدودة التي هي صورة خضوع الرعية الأعمى له ، ليست سوى انعكاس مباشر لوجودهم الجماعي والنفي الكامل لأستقلاليتهم كأفراد.

إن هـذا "التطابق" ، بين السلطة الاستبـدادية ونفي الفردية ، وتلك الإستمـرارية " للنمط الفسيولوجي" الأسـاسي في المجتمعات المسماة انقسامية ، رغم ظهور سلطة مركزية داخلهـا، يناقضان في الظاهر تجانسها

والظيفة التي تقترن بها.

يقول دوركايم :

"إن هذه المجتمعات هي موقع انتقاء التضامن الميكانيكي، بحيث أن خصائصها الفزيولوجية الأساسية مستمدة من هذا التضامن"(30).

ويمكن أن نبين باتباع تعليق فوكو على كلام دوركايم، أن هذا "الخلل في الإتساق" داخل كتاب "تقسيم العمل" يرجع إلى نظرية المحاكاة التي تؤسس تضامن المجتمعات الإنقسامية على التشابه؛ كما يمكننا أن نستخرج بالخصوص دور التماثل و" تخيل التشابه"(31) في ابستميات القرن XVI والعصر الكلاسيكي، كما يضبطها فوكو، باعتبارها تحدد على الأقل جزئيا، التصور ماقبل التحويلي للعالم الحي، الذي تنتمي إليه المجتمعات الإنقسامية حسب رؤية دوركايم.

إن هذا الإستعراض الموجز للتصور "الخفي" لدى فوكو الذي يلقي الضوء على التقابل الدوركايمي بين "الميكانيكي" و"العضوي"، قد سمح لنا بالكشف عن خلفية مقولة الإنقسامية التي تبين نمطا خاصا من المجتمعات يصفه دور كايم بقوله:
"هناك إذن بنية أجتماعية ذات طبيعة محددة، يناسبها التضامن الميكانيكي ، فما يميزها هو أنها نسق من التقسيمات المتجانسة التي يشبه بعضها بعضا"(32).
إلا أن التفكير السيولوجي فيما بعد دوركايم لاينحو هذا المنحى. فمقولة الانقسامية ستتخذ في أبحاث جل علماء الأنتروبولوجيا المعاصرين منعرجا جديدا، عمل على بلورته إيفانس برتشارد Evans Pritchard الذي نشر وترجم مؤلفات دوركايم في انجليترا. ولايعني ذلك أن التصور "العضوي" L'organicism لدى دوركايم والذي أخذه راديكلايف براون وبثه في درسه (33)، لم يخلف بعض الأثر في كتابات بريتشارد، إلا أن تصور برتشارد للإنقسامية وتحليل القرابة المرتبط بهذا التصور قد تمحور حول مقولتي البنية والنسق.

ففي كتابه الكلاسيكي: "قبائل النوير": وصف لأنماط الحياة والمؤسسات السياسية لشعب نيلي": The Nuer-A description of the Modes of Livelihood and political institutions of nilotic people الصادر في أكسفورد سنة 1940 يحرص عالم الإتنولوجيا البريطاني على إجلاء النظام السياسي لهؤلاء المنعين في النيل الأعلى؛ وتبدو تحليلاته للعلاقات بين الإنقسامية والنسق العام لبنيات المجتمع جد أخاذة.

إننا بعيدون هنا من ادعاء إمكانية تلخيص هذا المؤلف (بفتح اللام) الواسع الثراء والشديد التعقيد،

إن نص دوركايم يتقدم من طرف لآخر، كإمتداد - يكاد يكون حرفيا- لإشكالية ومفاهيم بيولوجية داخل الحقل التحليلي للمجتمعات الإنسانية، كما يبرز ذلك في مقولاته التي يستخدمها مثل" الركامات" (27) و الوظائف " و" الاعضاء" و" الخصائص الفسيولوجية".

هذه "الحيوية السوسيولوجية" تطبع بحدة طريقته ، وتاريخ البيولوجيا والقطيعة الكبرى التي عرفها مع لامارك يكونان أداة التحقيب ذاتها للموضوع الذى يدرسه: فالحد اللامرئي الذي يفصل جذريا"التضامن الميكانيكي" عن "التضامن العضوي"، و"المجتمعات الإنقسامية" عن المجتمعات التي يسود فيها تقسيم العمل، ليس شيئا آخر سوى الحد الذى يفصل بين حقبتين من البيولوجيا - حقبة ماقبل لامارك وحقبة مابعده - أو بين نمطين من المنهج ، أو مستويين من الواقع - " المدونة" و "التنظيم" - وكأن الطابع " البدائي ، للمجتمعات " الإنقسامية " التي هي بمثابة السلف " المتوحش " للمجموعات الخاضعة "للقانون التعاوني" لايتطلب كأداة استقصاء منهجي سوى مناهج ومفاهيم التاريخ الطبيعي القديم ، في مقابل الدقة النظرية التي تقتضيها المجموعات الاخيرة "القائمة على القانون التعاوني" والمتمثلة في النموذج " العضوي" وعلم التشريح المقارن.

ألا يعطينا دوركايم، بالفعل صورة عن " التضامن الميكانيكي" الذي يرتب انتظام الإنقسامات في شكل اندماج الحلقات في السلسلة بصفة طبيعية؟

ولكن مامعنى القول بأن " تضامن " حلقات السلسلة مستمد من تماثلها؟

ألاتكون الزامية الإرتباط والفعالية "التسلسلية" "catenaire" التي تنبثق بغرابة من تشابه " أقسام" المجتمعات الإنقسامية متولدتين - حسب لغة فوكو - عن المدونة ، وأثرا ناتجا فقط عن عملية تصنيفية يكون بمقدور أعمدتها وفصولها أن تترجم تجمعات واقعية وسلاسل فعلية، بحيث لايتم بعد الكلام" حول الأشياء التي تتخذ موقعها داخل فضاء آخر ليس فضاء الكلمات"(28), أي أننا هنا داخل حقبة " ميكانيكية" سابقة على عصر انفصال تنظيم (الحياة) عن المدونة؟

وفي حين تظهر " الخصائص الفيزيولوجية" للمجتمعات الأنقسامية بالضبط في الموقع الذي يحدده فوكو، أي عند أقتران فضاءات المدونة والتنظيم ، نجد أن "الخاصية البارزة"(29) في البيولوجيا التحويلية تحيل إلى بنية خفية في طريقها إلى التمايز، ويعني ذلك أننا قد ابتعدنا عندئذ عن الوجدات المتغيرة الشكل، عن هذه" الجبلة الإجتماعية" التي يقدمها دوركايم نموذجا افتراضيا لهذا "التضامن الميكانيكي".

ومع ذلك فإن "الخصائص الفيزيولوجية" للمجتمعات الإنقسامية تظل مرصعة داخل نظام التصنيف، رغم الإنفتاح على التصور العضوي - الذي هو أسمى - باللجوء إلى مقولة " الخاصية" وإشكالية العضو

شهادات على الوظائف الأساسية للكائن الحي ، ومتوجات لها: "هي في حد ذاتها مجرد جانب مرئي من تنظيم معقد ومرتب تلعب فيه الوظيفة دورا أساسيا وحددا" (23) وتنبثق أهمية مقولة الحياة في هذا القلب الترابي بين أعماق الجسد وسطح التنظيم، بين الدلالة التصنيفية لبعض العلامات المرئية، بين تجريدية الوظيفة وعادية العضو الذي تعرزه.

يقول فوكو:

"وبذلك تستعيد الخاصية دورها القديم كدليل مرئي يشير إلى عمق دفين وخفي ، إلا أن مايشير إليه، ليس نصا خفيا أو كلاما مغلقا، أو تشابها بالغ الدقة - بل أنه يدل على مجموع التنظيم المنسجم الذي يلتحم فيه المرئي واللامرئي معا"(24).

ينتج عن ذلك كما يقول فوكو قطيعة في التوازي بين التصنيف والمدونة الذي ميز حتى تلك اللحظة ماسمي آنذاك "التاريخ الطبيعي":

"فلما كان الترتيب يقوم على تقطيع تدريجي مستوعب للمكان المرئي، كان من المنتظر جدا أن يتم تحديد المجموعات وتعيينها بكيفية متوازية - كان من المنتظر أن تكون التسمية والتعيين شيئا واحدا، وأن يصبح مشكل الإسم ومشكل الجنس مشكلا واحدا - أما وأن الخاصية صارت لاتصنف إلا بالرجوع، أولا وقبل كل شيء ، إلى تنظيم أفراد الكائنات فإن عملية التمييز لم تعد تقام على ذات المقاييس واعتمادا على ذات العمليات التي تقام عليها عملية التسمية "(25).

إن هذا الإنزياح المذكور بين فضاء المدنية وفضاء التنظيم ، بين التاريخ الطبيعي القديم بتصنيفاته المؤسسة على التشابهات القابلة للملاحظة والتصور الجديد للحياة الذي دشنه لامارك، يكون بالنسبة لفوكو، نقطة التحول الأساسية التي تطبع تطور المعرفة البيولوجية في القرن 18.

فعند نقطة التقاطع بين الخطين اللذين ترسمهما السلاسل التصنيفية والعضوية ، تظهر "الخاصية التي تشير إلى وظيفة عميقة وتسمح في المستوى السطحي بمنحها إسما"(26).

إن الأسبقية التي اكتسبها التنظيم على المدونة ، وتحديد العضو من طرف الوظيفة ، والدور المركزي المعطى لمقولة الحياة، هي كلها مظاهر تحول يساهم في العمق في تجذير القسمة بين العضوي واللاعضوي، بين العضوي والميكانيكي،التي هي في قلب إشكالية المجتمعات الإنقسامية لدى دوركايم، ومازالت أصداؤها تلاحق في أيامنا هذه التقابل بين "المجتمعات الباردة" و" المجتمعات الساخنة" (حسب أصطلاح كلود ليفي - شتراوس).

المفترض ، وتسلسلها الضروري والمتساوي . ويعتقد دوركايم إن بإمكانه أن يوضح الامر في إشكالية أو سع هي إشكالية " العضو والوظيفة " التي يستعيرها من بيولوجيا مابعد لامارك ، حيث

" إن هناك بالفعل قانونا عاما مفاده أن العضو البارز في كل مجتمع يشارك من حيث طبيعة الوجود الجماعي الذي يمثله " (19).

ليس إذن من المدهش ، أن تنحصر وظيفة السلطة السياسية في المجتمعات الإنقسامية في الصياغة المادية لهذا التواضع الكثيف الذي ينتمي إلى هويتها الاكثر جوهرية، لأن هذه السلطة ليست سوى انبثاق (أو هي عضو) لوظيفة المحاكاة الغامضة والقاهرة التي تشكل قاعدة وجودها ذاته.

لقد أشرنا قبل لحظة إلى المفاهيم والصور المستعارة من الفرع المحرك لإبستمية (النظام المعرفي) في القرن 19 والذي هو البيولوجيا. في هذا السياق نلاحظ أن مؤلف دوركايم الذي ينفتح كله على تأمل حول مقولة " الوظيفة " (20) هو في الواقع نسيج من الاستعارات والمقارنات والتشبيهات المخصصة لإقامة جسور مع ميدان المعرفة الواسع الذي انفتح أمام علم القرن التاسع عشر وهو علم التشريح المقارن. فعبارة " الخاصية الفسيولوجية " الغامضة المطبقة على القواعد التي تتحكم في انسجام وتطور المجتمعات الإنسانية ، لايجال لفهمها دون الرجوع إلى حقل التاريخ الطبيعي ، حيث لعبت مقولة " الخاصية " دورا تصنيفيا أساسيا وقد لاحظ ميشال فوكو الدور الرئيسي لهذا المبدأ الذي يعمم في القرن التاسع عشر عن تجمع الأفراد والأنواع واندماج الوحدات المحدودة داخل مجموعات تتزايد اتساعا، وتلك خصائص ترجع إلى منظومات لينيي linne وتورنوفور tournefort - قد بين الإلتواءات التي فرضتها أعمال رواد التحويلية على مقولة " الخاصية " لجعلها ملائمة للمفهوم - المفتاح في البيولوجيا الجديدة ، أي ذلك المفهوم الذي هو أساس البناء الدوركايمي في كتاب تقسيم العمل: مفهوم التنظيم . يقول فوكو:

" مع جيسيو jussieu ولامالارك lamarck وفيك دازير Vicqd Asyr سوف تستند السمة المميزة، أو على الاصح، سوف يستند تحول البنية إلى خاصية، إلى مبدإ غريب عن الميدان المرئي - مبدأ داخلي لايرتد إلى لعبة التمثيل - هذا المبدأ (الذي يوافق العمل في مستوى الاقتصاد) هو التنظيم " (21).

باتباع هذه التحليلات التي يخصصها فوكو لهذا المفهوم المحوري في البيولوجيا، والذي ظهر وغا في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، لايمكن إلا أن نندهش لعمق الطابع " البيولوجي " الذي يلف مجموع البناء الدوركايمي.
فكرة التنظيم كمبدأ مركزي " للتصنيف " تبدو في البداية كما يقول لنا فوكو " في شكل تراتب الخاصيات " (22) كما يتضح من كتاب جوسيو "انواع النباتات"GeneraPlantarum إلى كتاب لامارك: " منظومة الحيوانات اللافقرية " - فالخاصيات لم تعد عناصر بسيطة في " بنية المرئي " . بل أصبحت

الذي يجمع بين الاهتمام القوي بالدقة المونوغرافية والبناء النظري الرصين علميا.

في إطار هذا الإستقصاء الجينالوجي الموجز لمفهوم الإقصائية لن نحتفظ من كتاب برتشارد إلا ببعض العناصر التي تسمح بتعيين ملامة المنظور العام الذي تنطبق داخله هذه المقولة على الحياة السياسية لمجتمع قبلي.

تعني الفصلين الأولين من كتابه ، يطيل برتشارد والحديث حول الموارد والمعطيات الإيكولوجية التي تعيش فيها قبائل النوير باعتبار أن مصدر رزقها الأساسي هو التنمية الحيوانية بالإضافة إلى زراعة الدخن والذرة الصفراء. ثم يبين في الفصل الثالث كيف أن تصور الزمان والمكان الشديد الارتباط بمعطيات الوسط الذي تحدده، هو تصور محكوم بنيويا بصفة عميقة بنمط تنظيمهم السياسي والاجتماعي(34).

ويصل برتشارد في الفصل الرابع إلى فحص نظامهم السياسي قائلا: "إن قبائل النوير تتوزع إلى تقسيمات "Segments" (35). وبدون أن نطيل في إعطاء تعريف لهذه التقسيمات يمر المؤلف مباشرة إلى فحص التحديدات المميزة التي يقترح تطبيقها على هذه التقسيمات فيقول: "إننا نسمي التقسيمات الأكبر فروعا قبلية أولية Sections.أما تقسيمات هذه الفروع فهي فروع قبلية ثانوية، وهي ذاتها تنقسم إلى فروع قبلية ثالثة" (36).

وتتكون الفروع الثالثة من مجموعات سكنية قروية "مركبة من مجموعات قرابة ومجموعات خدم"(37).

إن عبارات " قبائل" و"فروع" وبالأحرى " التقسيمة القبلية" ، لايبدو أنها تناسب الاستخدام الإصطلاحي لدى قبائل النوير ذاتها فهي مفاهيم جديدة أدخلها برتشارد لضبط بعض صيغ تجمع أفراد مجتمع النوير.

إن تدقيقا أوليا حول طبيعة "التقسيمات" التي تتكون القبيلة من اندماجها التسلسلي، يبين لنا أنها تحتوي على العديد من المميزات المماثلة لخصائص المجموعة القبلية التي هي بمثابة عناصر لها.

يقول برتشارد:" إن كل واحدة منها لها اسمها الذي يميزها. وشعورها المشترك وإقليمها الموحد"(38).

وكما هو منتظر، فإن التبادلات والعلاقات والإحساس بالانتماء المشترك إلى نفس المجموعة ، هي من الكثافة بحيث تصبح الأبعاد البشرية والجغرافية للفرع القبلي محدودة.

فمن الخطإ الجلي المماثلة بين البنية السياسية لقبائل النوير وفط ما من الغاية الإجتماعية المكونة من محض اتصال خطي بين وحدات مكانية متجاورة. وذلك ما اجتهد في تبيانه برتشارد في الباب السابق من كتابه عند ماتطرق إلى الفرق بين الفضاء الطبيعي و المسافة البنيوية "Distancestructurale" بالإنتماء إلى قبيلة ما أو إلى فرع قبلي معين، لايتحدد فقط بمولات المكان أو الإقليم. فإدراك الإقليم والارتباط به هما ذاتهما مشروطان بنيويا بالإنتماء إلى مجموعة مشتركة.

ويركز برتشارد على فكرة نسبية الفضاء الواقعي، الذي تنظمه بعمق "المسافة البنيوية" الناشئة عن منظومة القيم؛ عند ما يحلل عبارة "cieng" المرادفة لعبارة home الإنكليزية chez soi.

يقول برتشارد:

"لو التقينا بإنكليزي في ألمانيا وسألناه من أين هو لأجابنا أنه من انكليترا. فلو التقينا بنفس الرجل في لندن لأجابنا أنه من كونتية أكسفورد conte. فإذا التقيناه في كونتية أكسفورد ذكر إسم مدينة أو القرية. وإذا طرحنا عليه نفس السؤال داخل هذه المدينة أو هذه القرية، ذكر شارعا، وإذا كان الحوار دائرا في شارعه، أشار إلى داره. إن ذلك يصدق أيضا على قبائل النوير"(39).

ولكن مادام "السياق" cieng لدى شعب النوير يعني في آن واحد فضاء إقليميا وفرعا قبليا وانتسابا، فإننا ندرك بسهولة أن النسبية التي تطبع هذه المقولة تتعلق بكامل شبكة العلاقات التي تربط فردا ما بالكلية المتفصلة المكونة من المسافات الطبيعية والانتماء السياسي (القبلي) والإنتماء النسبي.

إن مقولة " المسافة البنيوية" (40) - في مقابل المسافة الطبيعية البسيطة بين ضيعة وأخرى - تعبر عن التركيب المعقد بين النظام الإقليمي والمنظومة السياسية والقرابية. ويشكل هذا التركيب مبدأ النسبية الأساسية التي تطبع المواقع الشخصية والجماعية داخل مجتمع النوير الإنقسامي.

يقول ايفانس - برتشارد:

" أن الشخص يعتبر عضوا في مجموعة سياسية، مهما كان نوعها، مادام ليس عضوا في مجموعات أخرى من نفس النوع. أنه ينظر إليها كمجموعات ، كما ينظر إليه اعضاؤها كعضو من مجموعة؛ فهذه العلاقات معها تهيمن عليها المسافة البنيوية بين المجموعات المذكورة. ولكن الشخص لاينظر إلى نفسه كعضو في نفس المجموعة، مادام عضوا في تقسيمة من هذه المجموعة متباينة مع التقسيمات الأخرى ومقابلة لها. ولذلك كان بإمكان شخص ما أن يكون في آن واحد عضوا في مجموعة معينة وليس عضوا فيها"(41).

ولندع جانبا الخلفية اللسانية التزامنية لهذا التصور للتنظيم الإجتماعي لقبائل النوير، حيث العلاقات لها

الأولوية بصفة جلية على العناصر المترابطة (فونولوجيا تروبتساكي خصوصاtroubetskey) ـ يقول برتشارد في فقرة سابقة على الاستشهاد المذكور آنفا:
"إن القيم تتجسد في كلمات تؤثر عبرها على السلوك" (42) ولنتذكر في هذا السياق مقالة ليفي ـ شتراوس المعروفة، التي صدرت في فترة قريبة من صدور كتاب ايفانس ـ برتشارد، وكان لها صدى طيبا في الأوساط الأنتولوجية التي استوحت المناهج اللسانية وانصاعت لإغرائها(43).

لندع ذلك إذن جانبا ، ولنكتفي بمحاولة إبراز بعض الإستنتاجات التي يستخلصها ايفانس ـ بريتشارد من هذه النسبية البنائية ، وذلك مايسمح له بتعيين خصائص النظام السياسي للمجتمع الإنقسامي.

ففي عدة مواطن من كتابه حول" النوير" ، يؤكد المؤلف على الطابع التقابلي والنسبي للتقسيمات القبلية والفروع والقبائل. فيكرر دائما أن التقسيمات ليست جواهر، أو كائنات متماهية مع ذاتها، أنها ليست " ماهيات" بلغة الميتافيزيقا التوماثية. فوجودها الفعلي لامجال له خارج شبكة التقابلات التي تجعل من إنسان ما عضوا في قبيلة؛ عند ما يتجه النظر إلى تلك القبيلة من حيث علاقتها بقبائل أخرى ؛ ولكنه يصبح غير منتم إليها عندما نرجعه إلى تقسيمته أو قريته ، في مقابل التقسيمات الأخرى في القبيلة؛ وفي مقابل قراها الأخرى.

فعلاقة التقابل هي التي تكون التقسيمات القبلية، وليس التعارض بين هذه العناصر داخل "نسق مخطط "systemecharpente: (44) هو الذي يعطيها وجودها:

يقول ايفانس برتشارد:

"ان التقسيمة القبلية هي مجموعة سياسية في مقابل تقسيمات أخرى من نفس الجنس ، ويشكل مجموعها قبيلة، ولكن فقط من حيث علاقتها بقبائل النوير الاخرى ، وبقبائل أجنبية مجاورة لها، تشكل كلها أجزاء من نفس النظام السياسي ـ فبدون هذه العلاقات، لايكون للتقسيمة القبلية والقبيلة الا معنى جد ضئيل"(45).

وهكذا تبدو فكرة النظام والكلية المتمفصلة والمتراتبة التي لاتحتوى فقط على تقسيمات نفس القبيلة، ولكن كذلك على مجموع قبائل النوير ـ خصوصا في مواجهة جيرانهم من الدنكا dinka ـ ، تبدو إذن هذه الفكرة أفقا تأليفيا ، وقطب التحام تقريبي ، يعطي معنى ومنزلة للتقابلات التي تنظم وتقسم مجتمع النوير.

وهكذا يتضح التكامل الضروري بين التقابل ـ فالمجموعات السياسية (قبائل وتقسيمات وقرى ...)

لاتوجد الا من حيث تعارضها ـ والتأليف ـ فالتعارضات لاتكتسب معناها الا داخل كلية نسقية تمارس فعلها فيها.

إن هذا التكامل هو ما يفسر بنائيا:

" هذه الميزة [الموجودة في] كل مجموعة سياسية ، وهي نزوعها المحتوم نحو الإنشطار fission وتقابل عناصرها فيما بينها، كما يفسر تلك الميزة الاخرى وهي نزوعها نحو الانصهار في مجموعات أخرى من فئتها، في مقابل تقسيمات سياسية أكبر منها" (46).

فمكانة التعارض والقطبية المنشئة للمجموعات السياسية داخل أرضية النظام الشاملة، تفسر كذلك الدور "البنائي" للحرب ، داخل المجتمع الإنقسامي.

ذلك أن مقتضيات الدفاع والأخذ الجماعي بالثأر هي التي تحيي قبل كل شيء التضامن بين المجموعات التي يشكل اندماجها الميزة الأساسية في الهيكل السياسي لمجتمع النوير حسب ايفانس ـ برتشارد الذي يقول:

"إن كل تقسيمة تتوزع إلى عدة أجزاء، وهناك تعارض بين أجزائها: فأعضاء تقسيمة معينة يتحدون في الحرب ضد تقسيمات مجاورة من نفس النمط، ويتحدون مع هذه التقسيمات المجاورة ضد الفروع الاكثر اتساعا"(47).

ويقدم ايفانس ـ برتشارد نموذجا تمثيليا لهذه الديناميكية الجماعية في هذا الرسم الثنائي حيث ترمز الحروف للقبائل والفروع القبلية:

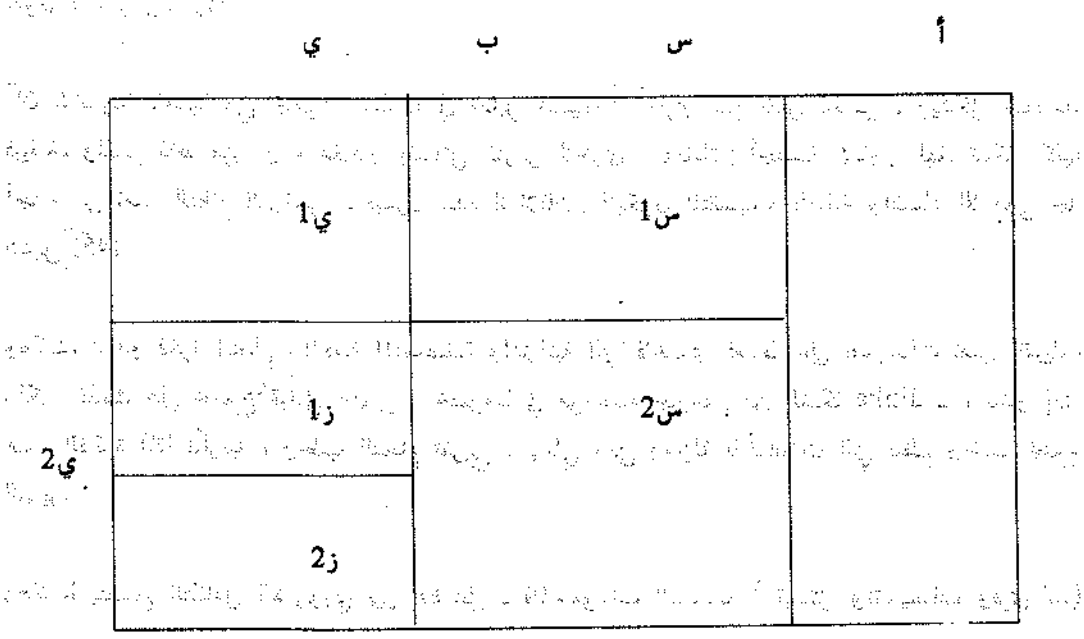

فعندما تكون ز1 في حرب مع ز2 ، لايشترك في الصراع أي فرع آخر. وعلى عكس ذلك ، عند ماتدخل ز1 في مواجهة مع ي1 ، تتحالف ز1 و ز2 ضد ي1 ؛ فإذا تحاربت س1 مع ي1 ، اتحد فرعا ي في مواجهة اتحاد فرعي س؛ أماإذا دخلت س1 في مواجهة مع أ، نشأ ائتلاف بين كل الفروع المكونة ل ب ضد أ وأخيرا " إذا نزلت أ إلى ساحة المواجهة مع الدينكا ، فهناك احتمالات أن تتحد أ و ب "(48).

وهكذا يتم التجسيد المادي للعبة النزوع المتكامل نحو الانشطار والانصهار الذي " يشكل ما أسميه مبدأ انقساميا" على حد قول ايفانس - برشيارد(49).

فإذا كانت العداوة الدائمة تمثل معطى أساسيا في الحياة الجماعية للنوير -" لايمكن أن يكون بين القبائل سوى الحرب" ص:189 - فإن ايفانس - برتشارد يذكرنا بوجود أفراد داخل هذه المجموعة، لهم بوظائفهم الطقوسية، مكانة قيادة وحصانة، تسمح لهم بلعب دور التصالح والوساطة بين المجموعات القبلية، بل وحتى ممارسة توجيهها السياسي : ويعني هنا " القادة ذوي جلود الفهد" ، الذين يتدخلون في المفاوضات المتعلقة بحل نزاعات الدماء، وكذلك "رجال الماشية"(wutglok) الذين بإمكانهم إرجاع الخصوبة إلى البقر العقيم الذي يخشى من شؤمه ، وفي الاخير "الانبياء" الذين ظهروا في زحمة الحركة المهدوية في سنوات 1880 وأشعلوا مقاومة النوير ضد السلطات الحكومية الانجليزية - المصرية، إلا أن وجود هؤلاء الاشخاص ، الذين تنحصر دائرة تدخلهم أساسا في بعض النشاطات الطقوسية ، لايؤثر على طابع التساوي الذي يطبع أساسا "الفوضى المنظمة" (50) التي تميز النظام السياسي للنوير - قد نستثني هنا الانبياء بإعتبارهم " أقطاب تجميع القبائل المجاورة "الذين" يشخصون مبدأ التقابل البنائي ويعطونه شكله الأسمى ، أي شكل وحدة وتجانس النوير في مواجهة الغريب" (51) - فرغم أن " النظام الإقليمي هو دائما المتغير المهيمن " (52) في نمط التنظيم السياسي لدى النوير، إلا أن إيفانس - برتشارد يميل الى جانب فحص القرابة للبحث عن أسس النسق المنظم الذي تتحدد داخله العلاقات فيما بينهم (أي النوير) يقول:

"إن وضعيتهم هي وضعية قرابة لا رأس لها: فدراسة القرابة هي وحدها التي تسمح بتفسير كيف يتماسك النظام وكيف ترسو العلاقات الإجتماعية وتتم المحافظة عليها على امتداد مناطق واسعة"(53) تلك هي النتيجة التي يصل إليها صاحبنا بعد أن حاول عزل "نسق سياسي" مستقل عن الأنساق الإجتماعية الاخرى، لأنه إذا كان من الممكن حصر بعض الروابط السياسية داخل المسار العام لمجتمع النوير، فإن تحليل ايفانس - ريتشارد يبرز أنها تناسب خصوصا "وظيفة متميزة في سلسلة الروابط الإجتماعية" (54) المركزة بصفة واسعة على القرابة .

يتضح إذن التداخل بين الروابط السياسية وروابط القرابة، ويتجلى ذلك خصوصا في تمحور الفروع

القبلية حول التقسيمات النسبية، وفي الطريقة التي تلون بها القرابة مجموع الروابط الإجتماعية:" لقد اعتاد النوير أن يعبروا عن التزاماتهم الإجتماعية بلغة القرابة"(55). وذلك مايتطلب إيضاحا لصيغ تحول روابط القارية إلى روابط سياسية (56). كيف إذن في هذه الظروف تتحول روابط القرابة إلى روابط سياسية؟

للإجابة على هذا السؤال ، وبعد إبراز العلاقات الكثيفة التي توحد بين التقسيمات الإقليمية والتقسيمات النسبية، يصل ايفانس - برتشارد إلى توسيع تحليله "للنسق السياسي" بفحص " نسق الأنساب" الذي خصص له الفصل الخامس من الكتاب ،بينما يعالج الفصل السادس والفصل الأخير بصفة أكثر اختصارا " نظام الفئات العمرية" classes d age - ويهتم بالأخص بنقاط تقاطع المنظومة الاقليمية والمنظومة النسبية، وهي مواقع تحول علاقات القرابة إلى علاقات سياسية ، حيث تشغل الأنساب وظيفة القبائل.

فالنوير ينقسمون إلى عشائر Clans patrineaires وتتحدد العشيرة " بأنها أكثر المجموعات النسبية اتساعا، من بين المجموعات التي ترجع بأصلها إلى جد جامع، ويحرم الزواج داخلها، وتعتبر العلاقات الجنسية بينها سفاحا" (57).

فالعشائر تنقسم لتشكل انطلاقا من قاعدة جينالوجية، انتسابات أي مجموعة فصائل تنحدر من أحد أحفاد الجد المشترك للعشيرة - يقول برتشارد:

"فالعشيرة هي منظومة من الانتسابات ، والفصيلة النسبية lignage هي فرع جينالوجي للعشيرة "(58) ويمثل لبنية العشيرة (أ) بالرسم التالي:
يسمى ب و س " فصائل قصوى" ، ويسمى د،ح،ف،ع "فصائل كبرى" ويسمى ه،ي،ج،ك "فصائل صغرى" ويسمى ل،م،ن،و "فصائل دنيا".

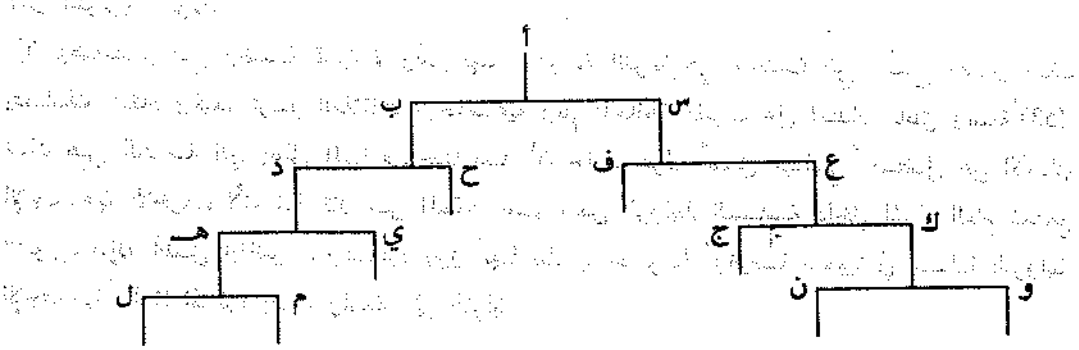

فالعصبة والعشائر لها مسميات ورموز طقوسية خاصة بها، كما ترتبط بروابط طوطمية وباطنية مرتبة ومتراتبة عبر بعض الإحتفالات المشتركة.

فعندما يتم تحليل روابط القرابة لدى النوير، لابد حسب ايفانس ـ بريتشارد من التمييز بين قرابة نسبية (Buth) تربط بين الفصائل النسبية ومجموعات الأشخاص، وشكل آخر من القرابة (mar) يدعوه أحيانا قرابة " عصب"consasguine ,وأحيانا قرابة " أمومية"materneile. ويعني هنا أساسا الأقارب الأدنون.

ويوجد تناسب بين المجموعات النسبية والفروع القبلية التي تحمل غالبا نفس الإسم " لإن المنطقة القبلية وتقسيماتها، تسمى غالبا بحسب العشائر والفصائل النسبية التي ينظر إليها كأول من سكنها"(59).

إن نسبية الوحدات السياسية المذكورة آنفا والتي تبدو جليامن خلال المعاني المختلفة لعبارة "سيانغ" تميز كذلك مسار التقسيم النسبي الذي يتقاطع إلى حدما مع مسار التفريع القبلي .

ففي الرسم السابق لاتشكل الفصائل الدينا(ل،م) فصائل متميزة، إلا لأنها تتصارع فيمابينها ، في مقابل(ي)، كما أنها ليست سوى عناصر من ه، التي ليست سوى عنصر من د في مقابل ح ...الخ.

يقول ايفانس ـ برتشارد:

"وهكذا فإن القيم النسبية هي أساسا ـ نسبية (محدودة)، مثلها مثل القيم القبلية ، وسأبين فيما بعد أن التفريع النسبي والتفريع القبلي مرتبطان إلى حدما (60).

ومن شأن التحديدات المذكورة في العبارة الأخيرة أن تسمح بإبداء الاعتبار لمؤشرات عدم التطابق كما تبرزها الملاحظة: فالفصيلة النسبية الواحدة لاتسكن بالضرورة في نفس الموقع، كما أن الوحدات السياسية (الفروع القبلية) تتجاوز بصفة واسعة الانتساب أو التقسيمة النسبية التي ترجع إليها غالبا تسميات تلك الوحدات السياسية، كما يرجع إليها " هيكلها التصوري".

يقول ايفانس ـ برتشارد :

" إن نسق انتسابات العشيرة المهيمنة هو هيكل تصوري تنبني عليه المجموعات المحلية، لتشكل تنظيما من عناصر متقاربة، أو هو بتعريف أفضل بدون شك، نسق من القيم ينظم التقسيمات القبلية ويوفر اللغة اللازمة التي تمكن روابطها من التعبير عن نفسها وأن تتخذ وجهتها" (61) فوجود عشيرة سياسية مهيمنة، لكنها أقلية ديمغرافيا داخل قبيلة ما، يسمح بتعيين مكانة ارستقراطية (dil) في مقابل وضعية (nul) التي هي وضعية النوير الآخرين الغريبين على العشيرة الأرستقراطية، كما هي وضعية الدينكا

dinka الذين لم يتم تبنيهم داخل النظام النسبي للنوير (Jaang) إلا أن اقتران لغة القرابة بالسكنية النسبية التي تتمتع بها المجموعات القبلية يسمح رغم ذلك بإعطاء بعض الإنسجام لهذه المجموعة المتمايزة؛ ويتجلى ذلك الانسجام في التوازي بين التقسيم النسبي والتقسيم السياسي، أي تحول روابط القرابة إلى روابط سياسية.

ويتم هذا التناسب بين المنظومة السياسية والمنظومة النسبية في ثلاث صيغ : التبني Adoption والزواج و" الخلق الميتولوجي لوهم القرابة"(62).

فالتبني يتم لصالح فتيان الدينكا الذين يسكنون في الغارات الدورية التي يقوم بها النوير ، وتكون نتيجته تحول الدينكا تحولا محضا إلى نوير. أما التزاوج بين عناصر من عشائر مختلفة تسكن في نفس القرية، وقد تكون منتمية لنفس الفرع القبلي ، فهو ناتج عن قواعد الزواج الخارجي Exogamie، أي الضرورة التي تفرض على أحد النوير أن يتزوج خارج العشيرة.

يقول ايفانس ـ برتشارد:

"إن قواعد الزواج الخارجي تمنع إذن تكون مجموعات نسبية مستقلة وتنشئ روابط قرابة متسعة داخل وخارج البنية القبلية ـ وهكذا يتجاوز نظام القرابة تصدعات البنية القبلية ، بفضل تسلسل الروابط التي توحد بين عناصر تقسيمات متقابلة، فهي كالأربطة المطاطية تجعل التقسيمات السياسية في حالة التفكك والصراع، مع ضمان المجموعة الي تكونها"(63).

فمهما كان غموض هذا الإستشهاد (64), فإنه يؤكد أن الحصيلة الأساسية للتزاوج هي جعل سكان قرية ما مترابطين فيما بينهم برباط القرابة.

إن الأمر هنا لايعني بالطبع سوى هذه القرابة " الأمومية " (mar) التي تخص الأفراد وليس المجموعات ، ولكنها مع ذلك تساهم من خلال مقولة "أبناء البنات" gaat mycet في إعطاء نمط من الأسماء القرابي للوحدة السياسية للفروع القبلية القروية.

كما أن تبلور العلاقات الجينالوجية الوهمية من خلال الأساطير يهدف إلى نفس الغاية:

"إن هذا الإجراء مناسب للروابط بين الفصائل النسبية المهيمنة والمجموعات الغريبة والدينكا التي تعيش معها داخل نفس التقسيمات القبلية، لكنها جد متسعة وتحتل موقعا جد متميز بحيث لايمكن دمجها حسب النهجين الأولين ـ إنه الإجراء الذي من خلاله تندمج جيوب واسعة من الأجانب والدينكا داخل الرسم التصوري لقبيلة ما "(65).

وفي خاتمة عرضه حول التنظيم الأنقسامي العصبي للنوير وتفصله مع النظام السياسي ، يلاحظ ايفانس ـ برتشارد. أنه من الغلط الثقة في المنظومة النسبية للعشيرة.

"إذا بحث فيه عن وثيقة انتساب" (66) نتيجة بالضبط للمؤشرات العديدة حول تبعثه للنظام السياسي

ومشاوراته التي تنزع إلى ملاءمته مع الضرورات التي يمليها هذاالنظام - أنه يذكر بأن العمق الجينالوجي للعشائر "مختصر وثابت" (10 إلى 12 جيل الفصائل الدنيا التي تتغير من 3 و6 أجيال) ؛ كما يذكرنا بأن المسافة بين الفصائل النسبية تبدو محددة أكثر "بالمسافة السياسية الفاصلة بين الفروع التي ترتبط بها تلك الفصائل" (67) من الاعتبارات الجينالوجية المحضة، وأخيرا يذكرنا أن الفصائل النسبية التي تثبت وجودها كخط انتسابي متميز، يرجع ذلك لأهميتها السياسية. فالانتخاب الذي يحدث بعد الموت بين الجدود هو في جانب كبير منه منتظم حول الوزن السياسي الحالي الذي يعطيه النظام السياسي لأحد الأنساق النسبية الخاصة . يقول بريتشارد:

"لقد أعربت عن فكرة مفادها أن عمق الإنتسابات هو بحسب الفاصلة التي يقع داخلها اعتبار القرابة العصبية على المستوى الوجودي ، وهآنذا أقدم هذه الفكرة التي مفادها أن هذه الفاصلة تتحدد في جزء كبير منها بالدور التنظيمي الذي تلعبه داخل البنية السياسية" (68) وفي الخاتمة، لابد من ذكر عنصر آخر يفسر للنوير ذاتهم ، آليات انشقاق وانشعاب الفصيلة النسبية وهو: التقابل بين "ابناء الأب"(gaot) (gwan) و"ابناء الأم " (gaot man) - ففي هذا المجتمع الذي يطبعه تعدد الزوجات ينزع الأخوان من الأب التي التصارع، وتكوين نقاط انطلاق لخطوط نسبية جديدة- إن هذه الظرفية تفسر العدد الكبير من الأسماء النسائية التي تحملها فصائل النوير، ويستنتج ايفانس - برتشارد قائلا:

"إذا فهمنا جيدا السيرورة لاحظنا أنه يحدث أن بعض المجموعات النسبية تبلغ حدا من الأهمية والتحكم الكلي سياسيا، بحيث تصبح نواة لفروع قبلية، وعندئذ فقط يثبت موقعها البنائي ، وتصبح نقاط تشعبها نقاط التقاء ثابتة ونهائية داخل البنية النسبية- ذلك مايفسر واقعتين هما:

أن الانتساب الاموي لايتعلق بنائيا إلا ببعض الأسر من بين عديد الأسر القائمة على تعددية الازواج؛ وأن التشعب يحدث في الفصيلة النسبية من حيث كونه ينشأ داخل القبيلة" (69).

ذلك بإختصار تلخيص للمنظور العام الذي حلل من خلاله ايفانس - برتشارد في عمله المونوغرافي الشهير حول "النوير" ، ظاهرة الإنقسامية، و"المبدأ الإنقسامي" الذي يحرك مسار انصهار وانشطار الوحدات السياسية، النسبية في مجتمع النوير.

ولنتذكر أن عمل ايفانس - بريتشارد كان يهدف بصفة صريحة إلى استعراض المؤسسات السياسية في مجتمع انقسامي "لارأس له" acephale, أي لايمتلك دولة، فالاشتراك في المعاشرة أو التحكم في اقليم مشترك هو مايشكل القاعدةالتي تتكون عليها الوحدات السياسية داخل هذا المجتمع؛ وهي القبائل أو

الفروع القبلية التي تتمفصل حول علاقات قرابة تنتظم حول التقابل المتكامل بين الانتساب العضي Filiation organique والإنتساب الأمومي materine بحيث يبدو أن القرابة تعطي للمجموع "معماره التصوري"، (مسار التقسيم النسبي يقترن بمسار التفريع القبلي)، ويلخص هذا الإستشهاد الأخير من كتاب ايفانس ـ برتشارد هذا الإقتران الوثيق بين القرابة والسياسة ، كما يتضح من خلال تحليل ظواهر الانشطار والانصهار التي تطبع الحياة الجماعية والتنظيم السياسي في المجتمعات الإنقسامية.

" وهكذا فإن أعضاء نفس الفصيلة النسبية، يرتبطون فيما بينهم بانتماء مشترك ، وروابط طقوسية، ومصالح مشتركة تتعلق بالماشية، وبواجب الثأر للدم وبالتزامات أخلاقية أخرى ، وبالارتباط بإقليم مشترك...الخ.

بينماهم متحدون مع أشخاص [آخرين] داخل المجتمع الشامل (society wider); كما انهم متحدون كمجموعات مع فصائل نسبية أخرى، من خلال العديد من روابط القرابة، التي لاتحمل ازدواجية القرابة العضية. كما أننا ذكرنا، بالإضافة إلى ذلك أن فصيلة النوير ليست فقط مجموعة انتساب، وانما هي مجموعة انتساب لها وظائف سياسية. فليس إذن من اللغو الكبير أن نشير إلى أن نمط القرابة العضية مرتبط بإستقلالية التقسيمات القبلية وتقابلهاالبنائي ـ مسار الإنفصال ـ وأن نمط القرابة اللاعضية مقترن ـ من خلال شبكة معقدة من الروابط من هذا التصنيف ـ بالنسق الإجتماعي الشامل (Wider) الذي يوحد التقسيمات فيمابينها ويحتويها ذلك هو مسار الانصهار فأحدى السلسلتين تبرز تفرد المجموعة العضية ونفوذها الكلي، أما السلسلة الاخرى فتبرز الحياة المشتركة التي تذوب داخلها هذه المجموعات"(70).

(يتبع)

ترجمة السيد ولد اباه

المراجع

1) G. Balandier : Antropologie Politique. Paris 1969. P60

2) A. W. Ould CHEIKH : Nomadisme, Islam et Pouvoir Politique dans la Société Maure Précoloniale. Thèse de Doctorat, Paris 1985

3) E. Durkheim : De la division du travail social, 1978.Paris101 pp.46 et.

4) Idem p.149

5) Idem p.150

6) Idem p.150

7) Idem p.151

8) Idem p.152

9) Idem p.152

10) Idem p.152

11) Idem p.153

12) Idem p.153

13) Idem p.153

14) Idem p.154

15) Idem p.154

16) Idem p.154

17) Idem p.155

18) Idem p.155

19) Idem p.156

20) Idem p.11

21) Michel Foucault : Les mots et les choses. 1966Paris pp.239-238

وقد رجعنا في ترجمة هذه المقاطع المأخوذة من كتاب "الكلمات والاشياء" إلى الترجمة العربية التي قام بها فريق مركز الإنماء القومي والصادرة عن المركز في بيروت سنة 1990 ـ ويوجد هذا الإستشهاد الأول في م :196 من الترجمة المذكورة.

22) Les mots et les choses p.239

23) ميشال فوكو: الكلمات والاشياء ، مركز الإنماء القومي ، بيروت 1990 م: 197.

24) نفس المرجع م: 198.

25) نفس المرجع م: 198 ـ 199.

26) نفس المرجع م: 199.

27) راجع هذا المفهوم لدى بونيه Bonnet في كتاب فوكو المذكور آنفا م: 243 (من النسخة الفرنسية).

28) M. Foucault : Les mots et les choses p.242

29) Idem p.242

30) Durkheim, op. cit. p.154

31) Foucault : les mots et les choses p.81

32) Durkheim : La division du travail p.157

33) حول أستاذ ايفانس ـ برتشارد، راجع الفقرة التي خصصها كلود ليفي شتراوس للحديث عن راد كليف براون.

Anthropologie structurale Paris 1973 p.61

34) يقيم برتشارد في هذا المنظور تمييزا واضحا بين الزمان التقدمي و" الزمان البنيوي" ، بين المسافة الواقعية والمسافة البنيوية. راجع:

35) Idem p.165

36) Idem p.165
37) Idem p.165
38) Idem p.168
39) Idem p.162
40) Idem p.162
41) Idem p.163
42) Idem p.161

43) انظر مقالة ليفي ـ شتراوس:

L'analyse structurale en linguistique et en << anthropologie>> -Word, Journal of the Linguistic circle of New York. I,2 August 1945

وقد أعاد نشرها في كتاب:

Anthropologie Structurale, Paris, 1958 pp.37-62

ولم يشر ليفي شتراوس إلى ايفانس ـ بريتشارد في هذا المقال، رغم أنه ينحو منحى كان قد سبقه إليه منذ أمد طويل.

44) Idem p.177
45) Idem p.174-175
46) Idem p.163
47) Idem p.169
48) Idem p.170
49) Idem p.297
50) Idem p.211
51) Idem p.219
52) Idem p.299
53) Idem pp.210-211
54) Idem p.220
55) Idem p.269
56) Idem p.220
57) Idem p.221
58) Idem p.221
59) Idem p.223
60) Idem p.228
61) Idem p.243
62) Idem p.261
63) Idem pp.258-259

64) انظر التعليق الذي يخصه له لوى ديمون في:

Paris 1971. pp 66-68 Introduction à deux théories d'anthropologie Sociale. -

وقد لاحظ ديمون أن النص يحمل مؤشرات على قلب التوجه العام الذي يقوم عليه منهجه ، وذلك بتأكيد "جوهرية" المجموعة في حين نجده قد دافع مرارا عن أولوية العلاقة على المواضيع المربوطة.

65) Idem p: 261
66) Idem p: 279
67) Idem p: 279
68) Idem pp.279-280
69) Idem p.280

70) Evans-Poutchard; Kinship and marriage among theNuer pp.177.Oxford 1951

ذكره لوى ديمون في:

L.Dumont, Introduction à deux théories, op.cité pp.72-73